بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 04 أبريل 2017

في استعادة مكانة العقل:
محمد عمارة مستأنفًا مشروع رواد النهضة

مصطفى الرويجل
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخص:

بعد أن أدرك العرب حجم تأخرهم، تساءلوا: لماذا تقدم الغرب وتأخر العرب؟ وفي بحثهم عن جواب لهذا السؤال، أدرك أهل الفكر والنظر أن تغييب العقل، كان أحد الأسباب الأساسية في هذا التراجع والتراخي الحضاري، فأصبح مطلب العقل والعقلانية مطلبًا ملحًا إبان عصر النهضة؛ لاعتقاد رواد النهضة أنه المَنْفذ والنفق الموصل إلى التنوير، وتميمة القضاء على آفة التقليد، التي جمَّدت فاعلية العقل العربي الإسلامي، وبالتالي؛ انتشار بدع غريبة عن قيم ومبادئ الإسلام؛ حيث توالت رواسب قرون التراجع على هذا العقل، حتى أصبح النهوض من جديد، يقترب من حدود الاستحالة، فقُيِّد العقل بتقليد وترديد ما قاله السلف، مع الزيادة على هذه الأقاويل وتقديسها، الأمر الذي دفع برواد النهضة إلى التشمير عن سواعد الجد من أجل الاضطلاع، بمهمة إحياء وتجديد النظر العقلي، وهو ما نلمسه في أثر كل من؛ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، كما يعد مشروع الدكتور (محمد عمارة) امتدادًا واستئنافًا لجهود هؤلاء الرواد، لإحياء العقلانية الإسلامية، فإذا كان الأفغاني وعبده، عمِلا على إحياء النظر العقلي، ونفض الغبار عن آلة العقل المعطلة، بدعوتهما التجديدية التي لم تحدد في التراث مذهبًا أو مرجعية فكرية، أو لنقل: لم يفصحا عن الانتماء الفكري؛ فإن عمارة حاول التأصيل لمشروعه الفكري، عندما رأى في الاعتزال الصفحة المشرقة في تراثنا الحضاري، فبدأ بالبحث عن شعاع العقلانية الساطع من المصنفات الاعتزالية، التي نجت من ألسنة اللهب، ونيران الجهل، فكان العقل من بين المفاهيم الأساسية التي استدعت منه الخوض في كتب الاعتزال، للبحث عن مشروعية فكرية لمشروعه.

إن عودة عمارة إلى تراث المعتزلة، ترغمنا على طرح مجموعة من الأسئلة، ستكون كفيلة بأشكلة موضوعنا، أهمها: ما هو الداعي الذي وجه عمارة إلى عقلانية المعتزلة؟ بماذا تتميز العقلانية الاعتزالية عن غيرها؟ وهل يشكل إحياء عقلانية أهل العدل والتوحيد، هدفًا فكريًا تنويريًا، أم ضرورة دفاعية آنية؟ كيف بلور عمارة ما سماه «العقلانية الإسلامية»؟

تقديم:

كان مطلب العقلانية مطلبًا ملحًا في الفكر العربي الحديث؛ لاعتقاد رواد النهضة أنه المَنْفذ والنفق الموصل إلى التنوير، وتميمة القضاء على آفة التقليد، التي جمَّدت فاعلية العقل العربي الإسلامي، وبالتالي؛ انتشار بدع غريبة عن قيم ومبادئ الإسلام، فتوالت رواسب قرون التراجع على هذا العقل، حتى أصبح النهوض من جديد، يقترب من حدود الاستحالة، فقُيِّد العقل بتقليد وترديد ما قاله السلف، مع الزيادة على هذه الأقاويل وتقديسها، الأمر الذي دفع برواد النهضة إلى التشمير عن سواعد الجد، من أجل الاضطلاع بمهمة إحياء وتجديد النظر العقلي، وهو ما نلمسه في أثر كل من؛ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، كما يعد مشروع الدكتور محمد عمارة امتدادًا واستئنافًا لجهود هؤلاء الرواد، لإحياء العقلانية الاسلامية؛ فإذا كان الأفغاني وعبده، قد عمِلا على إحياء النظر العقلي، ونفض الغبار عن آلة العقل المعطلة، بدعوتهما التجديدية، التي لم تحدد في التراث مذهبًا أو مرجعية فكرية، أو لنقل: لم يفصحا عن الانتماء الفكري؛ فإن عمارة حاول التأصيل لمشروعه الفكري، عندما رأى في الاعتزال الصفحة المشرقة في تراثنا الحضاري، فبدأ بالبحث عن شعاع العقلانية، الساطع من المصنفات الاعتزالية التي نجت من ألسنة اللهب، ونيران الجهل، فكان العقل من بين المفاهيم الأساسية التي استدعت منه الخوض في كتب الاعتزال، للبحث عن مشروعية فكرية لمشروعه.

إن عودة عمارة إلى تراث المعتزلة، ترغمنا على طرح مجموعة من الأسئلة، ستكون كفيلة بأشكلة موضوعنا؛ أهمها: ما هو الداعي الذي وجه عمارة إلى عقلانية المعتزلة؟ بماذا تتميز العقلانية الاعتزالية عن غيرها؟ وهل يشكل إحياء عقلانية أهل العدل والتوحيد هدفًا فكريًا تنويريًا، أم ضرورة دفاعية آنية؟ كيف بلور عمارة ما سماه "العقلانية الإسلامية"؟

1- العقلانية الإسلامية: الأصول والامتداد:

أ- نشأة العقلانية الإسلامية:

إن الخوض في العقلانية الإسلامية، فرض على محمد عمارة، تولية وجهه شطر علم الكلام، باعتباره المجال المعرفي الذي يتضمن التصور الإسلامي للعقلانية، هادفًا من خلال تقصي الحقائق التاريخية، إثبات أن علم الكلام ظهر في حضارة الإسلام على يد المعتزلة (الفرقة الكلامية الأكثر عقلانية)، ومعتبرًا إياه فلسفة الإسلام الخالصة، التي لم تكن تقليدًا لفلسفة الإغريق، ولا ترديدًا لمقولاتهم، يقول في ذلك: "ولقد كان (علم الكلام): الذي ظهر في حضارتنا على يد المعتزلة، هو التعبير عن أصالة هذه الأمة في الحقل الفلسفي، فلم يكن تقليدًا للفلسفة اليونانية، وترديدًا لمقولاتها، كما لم يكن وقوفًا عند ظواهر نصوص الكتاب

والسنة؛ وإنما كان معالجة فلسفية، بأدوات الفلسفة، لقضايا الدين، والعقيدة، والكون، والحياة الخاصة بهذه الأمة، ومن ثم، كانت فيه المادة لمن أراد أن يلتمس ما أبدعه العرب المسلمون في الفلسفة والفكر الديني على السواء"[1]، وينافح عمارة عن موقفه هذا بنص الحاكم الجشمي، الذي أقر بنص صريح، أن الكلام ولد في البيت الاعتزالي، وهو نص ورد في كتاب "**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**"، يقول فيه: "وجملة القول: إن المعتزلة هم الغالبون على الكلام، والغالبون على أهله؛ فالكلام منهم بدأ، وفيهم نشأ، ولهم السلف فيه، ولهم الكتب المصنفة المدونة، والأئمة المشهورة، ولهم الرد على المخالفين من أهل الإلحاد والبدع، ولهم المقامات المشهورة في الذب عن الإسلام، وكل من أخذ في الكلام، أو ما يوجد من الكلام في أيدي الناس، فمنهم أخذ، ومن أئمتهم اقتبس"[2]، فعلم الكلام، إذن، ولد اعتزاليًا، حسب ما يفصح عنه هذا النص، لذلك؛ فالعقلانية الإسلامية، ظهرت وتبلورت مع أهل العدل والتوحيد، الذين يرجع لهم الفضل في نشأة وازدهار علم الكلام.

وفي هذه المسألة؛ يرد عمارة على من زعم أن هذه العقلانية بدأت عندهم، عندما تُرجمت الفلسفة اليونانية، لكنها في حقيقة الأمر نمت واغتنت بهذه الترجمة، ولم تبدأ عندها، يقول: "فالمعتزلة، ومن قبلهم أسلافهم (أهل العدل والتوحيد)، قد مثلوا في تطورنا الفكري، بمراحله المبكرة، عقل هذه الأمة، والذي تأمل، ونظر، وتدبر، كي يجيب عن الأسئلة التي طرحتها الحياة على المجتمع والناس، فمنذ نشأتهم الأولى، امتازوا وتميزوا بالنظر الفلسفي في أمور الدين؛ فهم، إذن، يمثلون تيارًا عقليًا في الفكر العربي الإسلامي، حتى قبل حركة الترجمة عن اليونان، وغيرهم من القدماء"[3]، هكذا تكون العقلانية الإسلامية، قد استفادت من مناهج النظر اليونانية بعد تبلورها، ولم تكن حركة الترجمة هي السبب في نشأة هذه العقلانية.

لقد ظهر الإسلام في وقت كانت فيه النصرانية، وقد تأثرت بالغنوصية من الشرق، والهيلينية من اليونان، لاهوتًا كنسيًا لا علاقة له بالعقل ولا بالعقلانية؛ بل وحاربت العقلانية اليونانية، كتبًا وفلاسفة، مما جعلها تتحول إلى "خرافات، وألغاز، وأسرار، حولت العقائد الدينية إلى ميتافيزيقا مستعصية على الفهم، وهنا، تألقت العقلانية المؤمنة التي جاء بها الإسلام، فبددت بضربة من ضرباتها هذا الركام اللاعقلاني، وكانت السبيل الأول لدخول الناس أفواجًا في دين الإسلام، كما شهد بذلك المنصفون من العلماء الغربيين!"[4]، ويؤكد لنا محمد عمارة، أن العقلانية المؤمنة ظهرت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، في مناخ علم الكلام الإسلامي، أو علم التوحيد، الذي ظهر إبان التوسع في المناطق المجاورة للجزيرة العربية، مما ولَّد جدالات مع الخصوم في عواصم الثقافة والفكر اليوناني- الروماني، التي كانت منتشرة في البلاد

1 محمد عمارة، **تيارات الفكر الإسلامي**، دار الشروق، ط 2، 1418هـ/ 1997م، ص 67.

2 الحاكم الجشمي، **شرح العيون**، ضمن **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق: فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، 1393هـ/ 1974م، ص 391.

3 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 69.

4 محمد عمارة، **مقام العقل في الإسلام**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، فبراير 2008م، ص 19.

التي فتحها المسلمون، وكان من نتائج هذا الجدل، الذي استخدم العقل والمنطق: تبلور العقلانية الإسلامية، هكذا أدت الفتوحات الإسلامية إلى ضمّ العديد من الأصقاع للدولة الإسلامية، والتي كانت تملك إرثًا، علميًا وفلسفيًا، غريبًا عن بيئة الإسلام وثقافته، فوجد المسلمون أنفسهم في وسط فلسفي وعلمي، يجادل بمنطق أرسطو وفلسفة الإغريق، بينما كان أهل الإسلام، يقفون فقط عند ظاهر النصوص؛ آيات قرآنية، وأحاديث نبويّة، وزاد هذا الأمر حدّة، ما أقره الإسلام من حرية الاعتقاد للمخالفين في الملة، وهو ما ضمن لهم البقاء في البلدان الإسلامية؛ فكانت "حواضر الدولة تزخر بالجدل الديني بين فقهاء الإسلام وخصومه، على نحو متكافئ؛ لأن الخصوم قد تسلحوا بأدوات ذات طابع عام؛ بل وعالمي، هي؛ العقل، والمنطق، والفلسفة. على حين خلت ترسانة القراء والفقهاء (النصوصيين) إلا من النقول، آيات وأحاديث، وهي لا تلزم إلا المؤمنين بها، الذين لا يحتاجون إلى إلزام!"[5]، هنا، دخلت أدوات التراث اليوناني، من منطق وفلسفة، في مواجهة نصوص الشريعة؛ بل وظاهر هذه النصوص، وهو ما جعل النصوصيين في حيرة من أمرهم، كون نصوصهم، التي تمثل بالنسبة إليهم أدوات الحجاج، لا تلزم إلا من يؤمن بها، بينما أدوات المخالفين ذات طابع كوني، تُقتنَع بحججها العقول، مهما كان دينها أو نِحلتها.

فما يملكه النصوصيون من زاد، كان يؤتي أُكله عندما كانت الساحة الفكرية خالية من المخالفين؛ حيث كان المجتمع مجتمع المؤمنين بالنصوص، والنصوص كانت تعني، هنا؛ أدوات الإفهام والتدليل على قضايا يؤمن بها المسلم، وهي تثبيت للإيمان وتذكير للمؤمنين، لكن عندما دخل الدخيل إلى ثقافتهم ودولتهم، أصبح الزاد الفقهي لا يجدي نفعًا، وكان من الضروري التسلح بأسلحة الخصوم، وإتقان استخدامها، ويسجل عمارة بخط بارز، بعد هذه النتيجة التي توصلنا إليها، قوله: "لقد أصبح الواقع الفكري للحياة العربية الإسلامية، يتطلب فرسانًا غير (النصوصيين)، ويستدعي أسلحة غير (النقول والمأثورات) للدفاع عن الدين الإسلامي، وعن حضارة العرب والمسلمين، وغدت الأمة العربية المسلمة، تتطلع إلى نمطها الفلسفي المتميز، الذي تدافع به عن بنائها الحضاري الخاص"[6]، هكذا ظهر الفرسان على أنقاض ضعف أهل النص، وعُرفوا باستخدامهم لأسلحة الخصوم؛ فالدليل العقلي والمنطقي يؤتي أُكله في جدل كوني، يتسم بالبعد عن ظاهر النص، تأويلًا له، أو إعراضًا عنه، وخوضًا في الدليل العقلي المحض؛ فكان أهل العدل والتوحيد هم (الفرسان)، الذين تسلحوا بهذه الأسلحة للدفاع عن أمة الإسلام.

كانت، إذن، الحاجة ملحة للمنطق والجدل العقلي، للذب عن عقيدة الإسلام، وفي ظل هذا المناخ الجدلي، يؤكد لنا عمارة: "أن (العقلانية القرآنية) التي تحولت إلى (فلسفة إسلامية)، في علم الكلام الذي أسسه المعتزلة، قد غدت (ضرورة فكرية)، و(فريضة حضارية) لحوار أصحاب المذاهب والديانات والفلسفات،

5 محمد عمارة، **تيارات الفكر الإسلامي**، سبق ذكره، ص 66.

6 المرجع نفسه، ص 67.

وأنه بدونها لا يمكن نشر الإسلام في هذه البيئات التي أدخلتها الفتوحات الإسلامية في دولة الإسلام"[7]، هكذا، لم يعد للدليل النقلي وزن في هذه البيئة الجديدة، التي ليست بالبسيطة؛ فهي مسلحة بالقوانين العقلية والمنطقية، وأصبح المعتمِد على النقل، كالداخل إلى المعركة بلا سلاح.

وللتمثيل لما قلناه؛ نأتي بمناظرة تحتفظ لنا بها المصادر التراثية، أوردها القاضي عبد الجبار في "**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**"، بين الجهم بن صفوان [128هـ– 745م]، وعلماء السمنية؛ الذين يقولون بحسية المعرفة، جاء فيها: "ذكر أبو الحسن بن فزويه، أن قومًا من السمنية أتوا جهم بن صفوان، فقالوا له: هل يخرج المعروف[8] عن المشاعر الخمسة[9]؟ قال: لا. قالوا: فحدثنا عن معبودك الذي تعبده، أشيء وجدته في هذه المشاعر؟ قال: لا. قالوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها؛ فقد دخل في المجهول. قال: فسكت جهم، وكتب إلى واصل. فكتب إليه واصل: قد كان يجب أن تشترط وجهًا سادسًا، وهو؛ الدليل، فتقول: إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة، وعن الدليل، فلما لم تشترط ذلك، شكِّكت وكُفِّرت، فارجع إليهم الآن، وقل لهم: هل تفرقون بين الحي والميت، وبين العاقل والمجنون؛ فإنهم يعترفون بذلك، وأنه يُعرف بالدليل لا بغيره، فلما وصل الجواب إلى جهم، رجع به على السمنية، فقالوا له: ليس هذا من كلامك، فمن أين لك؟ قال: كتب (به) إليَّ رجل من العلماء بالبصرة، يقال له واصل، فخرجوا إليه، و(كلّموه)، فأجابوه إلى الإسلام"[10]، يصور لنا هذا النص المناظرة بشكل دقيق، وهي تبين لنا أهمية الدليل، في إثبات وجود الله، ولما لم يعتمد الجهم على الدليل، فشل في مناظرة السمنية، لكنه نجح بعد ذلك، عندما وجهه واصل لإضافة الوجه السادس، الذي هو (الدليل العقلي).

هذا النص وظفه عمارة من أجل بيان إرهاصات الإضافة النوعية للدليل العقلي، والذي يعتبر أسمى من المنافذ الحسية في تحصيل المعرفة؛ فالعقل يفارق المادة، لذلك؛ فإن إدراكه يفوق قدرة الحواس، فبدون الدليل العقلي، يعجز المرء عن مناظرة أصحاب المذاهب الفلسفية، والمخالفين في الملة، وبذلك تحولت العقلانية القرآنية إلى علم الكلام، الذي يعبِّر، حسب عمارة، عن فلسفة الإسلام؛ التي نبعت من القرآن الكريم، وهي لبنة من لبنات علم الكلام، الذي تبلور على يد المعتزلة[11]. واستخدم هذه العقلانية في المنافحة عن الملة،

---

7 محمد عمارة، **مقام العقل في الإسلام**، سبق ذكره، ص 23.

8 المعروف ضد المجهول.

9 الحواس الخمس.

10 القاضي عبد الجبار، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، سبق ذكره، ص 240.

11 حديث عمارة عن العقلانية التي تبلورت على يد المعتزلة: هو حديث عن جانب واحد، وهو الجانب الدفاعي، الذي يعتبر عند البعض هدف علم الكلام وغايته، إنه بذلك؛ يريد أن يستمد هذه العقلانية، من أجل خوض معركة دفاعية ضد المخالفين العلمانيين، من جهة، والنصوصيين من جهة ثانية، رغم أنه يؤكد الفهم العقلي للقرآن وتدبره، ولكن ذلك، فقط، من أجل المحاججة عليه عقلانيًا، ونفي كهنوتيته، التي عانت منها النصرانية في عصورها الوسطى.

لكن التراث الاعتزالي، كان أغنى من ذلك، ومتعدد الوظائف، ولم يكن المعتزلة، فقط، مدافعين عن الإسلام؛ بل كانوا علماء، يستنبطون الأحكام، ويساهمون في بناء الحياة بالانخراط في مشاكلها، محاولين إيجاد الحلول لها.

يقول عمارة: "فإذا جئنا إلى هذه المدرسة العقلية، التي مثلت فرسان العقلانية الإسلامية، والتي حاورت أصحاب المذاهب غير الإسلامية، الدينية منها والفلسفية، وردّت شبهاتهم، ونشرت الإسلام في الحواضر التي كانت فيها المواريث الفلسفية القديمة، والمؤسسات الدينية غير الإسلامية، وهي؛ مدرسة المعتزلة، أهل العدل والتوحيد، فإننا نجد أنفسنا إزاء عقلانية مؤمنة، انطلقت، ربما لأول مرة في تاريخ الفلسفة، من الدين، وجعلت مهمتها الأولى؛ هي الدفاع عن الدين بالبراهين العقلية"[12]، إننا، هنا، إزاء عقلانية مؤمنة، مؤمنة؛ لأنها نابعة من النص الديني، الأمر الذي يؤكد عليه محمد عمارة، في العديد من مؤلفاته التي خصصها للحديث عن علم الكلام.

إذن؛ فالعقلانية القرآنية التي أخذ بها الصحابة، وكانت شائعة بينهم، تطورت عند أهل العدل والتوحيد، بعد الضرورة التي دعت إليها، عندما انتشر الإسلام في البلدان التي تعرف إرثًا فلسفيًا، ويجادل أهلها بالعقل والمنطق، إلى عقلانية (مؤمنة)، استفادت من أدوات الحجاج، التي كانت رائجة في هذه الأوساط الفكرية، وهو القول الذي يؤكده لنا المستشرق (هاملتون جب H. Gibb) في هذا النص: "اتجه المفكرون الدينيون، ممن كانوا أكثر ثقافة وتشددًا، أعني؛ رجال المعتزلة، إلى المؤلفات الفلسفية الإغريقية، وإلى مؤلفات الجدل النصراني- الهلنستي؛ حيث وجدوا وسائل الجدل التي تكفل لهم أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة، وأن يفحموهم، وأن يسندوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن"[13]؛ فالمعتزلة، إذن، استفادوا من الأدوات المنطقية اليونانية، وأدوات الجدل النصراني، إضافة إلى ما يملكون من علوم العربية، والقرآن والسنة، أو ما يجمعه الجابري في مفهوم (البيان)، وأسسوا عقلانية إسلامية ميزت الفكر العربي الإسلامي، وهي عقلانية تنطلق من النصوص الدينية، ومن المنطق والبرهان العقلي.

ب- مكانة العقل في النقل:

لقد ظهر "اللوغوس" عند الإغريق دون نقل ودون وحي، وظهر في الحضارة الغربية الحديثة، كثورة على تزمت الكنيسة، التي حاربت الفكر الفلسفي، واضطهدت العلماء، وهو ما انعكس على التصور الغربي اليوناني- الأوروبي، للعقل والعقلانية، فاتخذ هذا التصور طابعًا ماديًا، لا يتداخله نقل، ولكن الأمر على خلاف ذلك بالنسبة إلى طبيعة (العقلانية الإسلامية)؛ فهذه العقلانية نابعة من الدين، ومؤسسة على النص الديني الأول، والرسالة العقلانية؛ هي انتصار للدين الإسلامي، وليست ثورة عليه، وهو ما يدافع عنه عمارة، الذي يعتبر العقل (نورًا من أنوار الله، يزامل هذا الدين الحنيف، ويمثل، بالنسبة إليه؛ أداة الفهم، وقاعدة التأسيس، وبسبب هذا التأسيس الديني، للعقل والعقلانية، في الفلسفة الإسلامية والحضارة الإسلامية،

12 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 28.

13 هاملتون جب، **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة: إحسان عباس– محمد يوسف نجم– محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، أبريل/ نيسان 1979م، ص 16.

كانت مهمة العقلانية الإسلامية؛ هي الدفاع عن الإيمان الإسلامي، بالمنطق العقلاني الداعم للوحي الإلهي، والنقل الإسلامي"[14]، وهو أمر يظهر تمايز حد العقل عند المسلمين ووظيفته، عن تصور العقل في الحضارة الغربية، التي كان فيها العقل، في شقها اليوناني؛ بديلًا عن الدين، وفي شقها الأوروبي؛ ثورة عليه، ولكن في الحضارة الإسلامية نجد الصواب صوابين:

1- صواب النبوة والرسالة: الذي جاء به نبأ السماء العظيم.

2- وصواب العقلانية: الذي تبدعه الحكمة الإنسانية والعقل الإنساني"[15].

والرسول رسولين؛ الأول: بعثه الباري تعالى من الباطن، وهو؛ العقل، أما الثاني: فقد بعثه الله من الظاهر، وهو؛ الرسول صلى الله عليه وسلم، "ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر، ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن؛ فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجة، بقوله: ولهذا أحال الله من يشك في وحدانيته، وصحة نبوة أنبيائه على العقل؛ فأمره بأن يَفْزع إليه في معرفة صحتها"[16]، ويكون العقل، بذلك، هو المعين على فهم الظاهر والانتفاع به، معرفةً لصحته، وجلاءً لحقائقه، إنه السبيل لمعرفة الشرع والاستدلال به؛ فلولا تقدم العقليات ما عقلت الشرعيات، ويضرب لنا الراغب الأصفهاني، مثلًا جميلًا، يقول فيه: "المعقولات تجري مجرى الأدوية الجالية للصحة، والشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة"[17]، و"الجهل بالمعقولات جارٍ مجرى ستار مرخى على البصر، وغشاء على القلب، ووقر في الأذن، والقرآن لا تُدرك حقائقه، إلا لمن كشف غطاؤه، ورفع غشاؤه، وأزيل وقره"[18]؛ فلا استقلال، إذن، للظاهر (النقل)، عن الباطن (العقل).

ومن أجل بيان القيمة التي يضطلع بها العقل في الكتاب والسنة؛ عَمل عمارة على حصر الآيات القرآنية، التي تعبر عن العقل، رسمًا أو مضمونًا، بإيراد إحدى مرادفاته؛ فالآيات التي عبرت عن العقل، بمصطلح **القلب**، ويعدها في مئة واثنين وثلاثين موضعًا، ويقول لنا معلقًا على ذلك: "وهذا الجمع القرآني بين مصطلحي (العقل) و(القلب)، في التعبير عن هذه الملكة والغريزة، إشارة إلى جمع الإسلام، في فلسفته وثقافته، بين (تقوى القلوب، وعقل العقول)، على النحو الذي يبرئ الفكر الإسلامي من الفصام النكد، بين

14 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 9.

15 المرجع نفسه، ص 9.

16 الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد أبو اليزيد العَجَمي، دار السلام، ط 1، 1428هـ/ 2007م، ص 157. هذا النص يأخذه عمارة عن الراغب الأصفهاني، المتوفى سنة 502هـ/ 1108م، وحسب بعض المصادر، يقال فيه: إنه كان أشعري المذهب، بيد أن هذا الادعاء، ناتج عن تشيع وتفضيل أبو حامد الغزالي لكتابه "الذريعة"، ونعثر في المصادر التراثية، على أنه اتهم بالاعتزال وبالتشيع، وبعض الترجمات اكتفت بالقول: إن الرجل يبقى غامضًا في توجهه، كونه لم يتحدث عن سيرته فيما صنفه.

17 المصدر نفسه، ص 158.

18 المصدر نفسه، ص 158.

الخبراء؛ الذين لا قلوب لهم، والفقهاء؛ الذين لا عقول لهم"[19]، أما الآيات التي عبرت عن العقل **باللب**؛ فهي ست عشرة آية، والتعبير عنه بالنُّهَى في آيتين. و**بالفكر** و**التفكير**، ورد في ثمانية عشر موضعًا، و**الفقه** الذي يعني؛ "التوصل إلى علم الغيب عن علم الشهادة"؛ فقد ورد في عشرين موضعًا، ومعنى **التدبر**؛ فقد ورد في أربع آيات، و**الاعتبار**؛ في سبع آيات، و**الحكمة**؛ التي عبرت عن الصواب العقلاني، وردت في تسع عشرة آية من آيات القرآن.

فبلغت الآيات التي ذكرت لفظ العقل، أو مرادفاته مئتين وسبعة وستون آية، ويمكن إضافة آيات متعددة، عبرت ضمنيًا عن ذلك؛ "وهي التي تستخدم المنطق العقلاني في المحاورة، والمخاطبة، والاستدلال، والإقناع، وفي تفنيد حجج الخصوم، وذلك دون أن تذكر مصطلحات العقلانية بألفاظها؛ وذلك مثل: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}[20]، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم}[21]»[22]، والعديد من الأدلة، التي تدّعي استخدام العقل والبرهان، لإثبات حقائق عالم الغيب، كما حقائق عالم الشهادة.

وإذا أضفنا إلى هذه الآيات القرآنية، العديد من الأحاديث النبوية «التي جاءت في فضل العقل ومكانته، والتي إذا ضعّفها المحدثون، الذين غلبت عليهم صنعة الرواية على صنعة الدراية، والذين لم يكونوا أولياء، ولا أحباء النظر العقلي؛ فإنها، هذه الأحاديث، مصدقة لما جاء عن العقل والعقلانية في القرآن الكريم»[23]، وهذه الأحاديث صحيحة، حسب عمارة (درايةً)، ولو ضعِّفت (روايةً).

وإذا جمعنا الآيات التي ورد فيها العقل، ذكرًا لرسمه أو لمرادفاته، أو جاءت متضمنة لبرهان عقلي، مع الأحاديث التي موضوعها فضل العقل ومرتبته، «أدركنا هذا المقام السامي والمتألق للعقل والعقلانية في الإسلام، وفلسفته، وحضارته»[24]، وذلك بمباركة نصوص السمع، التي جاءت موصية باستعمال العقل لتدبر النقل، هكذا يحشد عمارة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي ذُكر العقل فيها صراحةً أو ضمنًا، من أجل بيان قيمة العقل والعقلانية في الإسلام، ووقوف العقل إلى جانب النقل.

وإذا تدبرنا ظروف نشأة وتكوُّن العقلانية الإسلامية، والمكانة التي منحها النقل للعقل في آياته وأحاديثه، أدركنا قيمة العقل في الإسلام، والمهمة التي اضطلع بها خِدمةً للإسلام والمسلمين.

---

19 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 10.

20 [سورة الأنبياء (21): 22].

21 [سورة يس (36): 81].

22 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 12.

23 المرجع نفسه، ص 13.

24 المرجع نفسه، ص 13.

2- العقلانية الإسلامية؛ من التراجع إلى النهضة:

أ- تراجع العقلانية الإسلامية:

لقد أقرّ محمد عمارة بعقلانية التراث العربي الإسلامي، خلا أهل الحديث، وهو ما توصل إليه بعد إيراد العديد من النصوص التراثية، التي تؤكد أهمية العقل إلى جانب الشرع، والدراية إلى جانب الرواية، والكون المنظور بجانب الكون المسطور، فعرج على مواقف متعددة؛ من الحسن البصري إلى أعلام المعتزلة، ثم الحارث بن أسد المحاسبي، وأبي حيان التوحيدي، وأبي الحسن الماوردي، والراغب الأصفهاني، وأبي حامد الغزالي، وابن رشد، والقرافي أحمد بن إدريس، وابن تيمية. وقال، بعد بيان رأي هؤلاء في أهمية العقل إلى جانب النقل: "هكذا تألقت العقلانية الإسلامية في عصر الازدهار لحضارة الإسلام، وهكذا سادت مناهج التفكير في معظم مذاهب المسلمين، باستثناء بعض (أهل الحديث) الذين غلبت عليهم (صنعة الرواية)، أكثر من (ملكة الدراية)، الذين وصف أبو حامد الغزالي، رائدهم الإمام أحمد ابن حنبل [164- 241ه/ 780- 855م]، بأنه: "لم يكن ممعنًا في النظر العقلي"[25]، وباستثناء هذا التيار النصوصي، سادت العقلانية الإسلامية معظم تيارات الفكر في حضارة الإسلام"[26].

لكن حديث عمارة عن هذه المساهمات، التي امتدت من الحسن البصري حتى ابن تيمية، قد يوهمنا بأن تاريخ العقلانية الإسلامية، امتد على طول عصور هذه الأعلام، إلا أن الأمر على خلاف ذلك؛ فعصر العقلانية: هو العصر الذهبي لحضارة الإسلام، الذي عرف سيادة الفكر الاعتزالي، وتبقى مساهمات هؤلاء، لا ترقى إلى مستوى صياغة مشروع مجتمعي، وهي إضافات معزولة في الزمان والمكان.

هذا الأمر يثيره عمارة، عندما يتحدث عن تراجع العقلانية الإسلامية؛ يقول: "لقد جاء حين من الدهر، تراجعت فيه العقلانية الإسلامية، ضمن ظاهرة التراجع الذي أصاب الحضارة الإسلامية، فسادت الركاكة لغتنا العربية، وطغت المحسنات الشكلية على شعرنا العربي، وحل الجمود والتقليد محل الاجتهاد والتجديد في مذاهب الفقه الإسلامي، وانتشرت البدع والخرافات، بدلًا من التصوف الحقيقي، وتراجع علم الكلام الإسلامي، وشاعت مقولة: (من تمنطق فقد تزندق)"[27]، وقد أرجع عمارة لحظة بداية تراجع العقلانية الإسلامية، إلى المرسوم الذي أصدره (القادر بالله) والمعروف في كتب التاريخ والفرق بـ(الاعتقاد القادري): الذي يتضمن في فحواه؛ تحريم علم الكلام، وعلى الخصوص، فكر المعتزلة، وقراءة هذا المرسوم على الناس من أعلى المنابر، وتوعيد المشتغلين بهذا العلم. وعُدَّ هذا الأمر (انقلاب على العقلانية الإسلامية)،

25 أبو حامد الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، تحقيق ودراسة: حكة مصطفى، دار النشر المغربية، 1983م، ص 17.

26 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 41.

27 المرجع نفسه، ص 42.

وهو أمر أورده الإمام محمد عبده ضمن "الأعمال الكاملة" التي حققها عمارة، يقول الإمام: "انظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام، سببًا فيما صار إليه أهله؛ كان الإسلام دينًا عربيًا، ثم لحقه العلم؛ فصار علمًا عربيًا، بعد أن كان يونانيًا، ثم أخطأ خليفة في السياسة؛ فاتخذ من سعة الإسلام سبيلًا إلى ما كان يظنه خيرًا له، ظن أن الجيش العربي قد يكون عونًا لخليفة علوي؛ لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي، صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًا؛ من الترك، والديلم، وغيرهم من الأمم، التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها بإحسانه، فلا تُساعد الخارج عليه، ولا تُعين طالب مكانه من المُلك، وفي سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك، هناك استعجم الإسلام، وانقلب أعجميًا. خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه، وبئس ما صنع بأمته ودينه، أكثرَ من ذلك الجند الأجنبي، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها، حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين"[28]، تتحدد، إذن، بداية عصر التراجع، بالمرسوم الذي أصدره القادر بالله، إنها البداية الفعلية التي كبلت العقل العربي الإسلامي، وازداد الأمر استفحالًا أثناء الحملات الصليبية، التي عمرت قرنين من الزمان [489- 690ه/ 1096- 1291م]، وما حدث من تحالف الصليبيين مع التتار، ثم اجتياح المشرق الإسلامي والعربي، وما خلفه من دمار مادي وفكري.

واستمر الأمر على ذلك، حتى حملة نابليون بونابارت على مصر [1769- 1821م]، "الأمر الذي استنفر في الأمة عوامل المقاومة، فبدأت تحيي مواريثها في العقلانية؛ لتجدد بها حياتها، ولتقطع الطريق على التغريب، والغزو الفكري، والعقلانية الوضعية اللادينية، التي أخذت في التسلل إلى بلادنا، في ركاب الغزاة الغربيين..."[29]، من هنا؛ سيظهر عصر النهضة، الذي سيبعث الأمل في نهضة عربية إسلامية، تنهي عصور الانحطاط والتراجع على كل المستويات.

ب- نهضة العقلانية الإسلامية وعودة جدل العقل والنقل:

كان أثر الحملات الاستعمارية بليغًا في نفوس الشعوب العربية الإسلامية، والتي علمت، حينها، حجم التخلف والانحطاط القابعة فيه، وهو ما عمل على تحريك وعي النهضة، الأمر الذي سيبدأ مع **رفاعة الطهطاوي**؛ الذي أُرسل إلى باريس، كإمام للبعثة التعليمية، التي كان قد أرسلها محمد علي باشا [1184- 1265ه/ 1770- 1849م]، والتي كانت بين سنتي [1826- 1831م]، وكان قد أمره شيخ الأزهر حسن العطار [1180- 1250ه/ 1766- 1834م]، بأن يكتب ما يشاهده في تلك البلاد، لمعرفة ما للآخر من علوم، يقول عمارة، عما رآه الطهطاوي في باريس:

28 محمد عبده، **الأعمال الكاملة**، ج 3، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، بيروت– القاهرة، ط 1، 1414هـ/ 1993م، ص ص 335– 336.

29 محمد عمارة، المرجع السابق، ص 45.

"-1 علومًا طبيعية وتطبيقات لهذه العلوم الطبيعية، وقد غدت (مدنية) تقيم العمران المزدهر للواقع المادي في تلك البلاد، وأدرك أن هذه العلوم، هي: مشترك إنساني عام؛ بل وأدرك الأصول والجذور لهذه العلوم في حضارة الإسلام، وتراث المسلمين.

-2 فلسفة وضعية وعقلانية لا دينية، مليئة بالحشوات الضلالية، ومخالفة لكل الكتب السماوية"[30].

وهذا ما جعل الطهطاوي يدعو إلى أخذ العلم الطبيعي وتطبيقاته من الحضارة الغربية، ورفض عقلانيتها الوضعية اللادينية، وفي المقابل؛ إحياء العقلانية الإسلامية، فيقول محمد عمارة: "فعقلانيتنا الإسلامية، لا تتنكر للتحسين والتقبيح بالعقل؛ وإنما ترجع إلى الشرع، أيضًا، في هذا التحسين والتقبيح؛ لتكون عقلانية مؤمنة، قائمة على ساقي (العقل) و(الشرع)، كما هو طابعها، دائمًا وأبدًا، نعم، لقد تجلى هذا الوعي بتميز العقلانية الإسلامية في فكر الطهطاوي، الذي كان أول عين إسلامية رأت النموذج الحضاري الغربي في العصر الحديث"[31]، وبعد أن عرج عمارة على موقف الطهطاوي، يستدعي الرجل الثاني من رواد النهضة؛ الذي طالب بإحياء العقلانية الإسلامية، رافضًا الجمود والوقوف عند ظاهر النصوص، وهو الثائر: **جمال الدين الأفغاني** [1838- 1897م]؛ الذي يقول عن هذه العقلانية: "فهذا الدين الإسلامي، يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب العقل، وكلما حاكم إلى العقل، تنطِق نصوصه بأن السعادة من نتاج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة، وإهمال العقل، وانطفاء نور البصيرة؛ فالعقل مشرق الإيمان، ومن تحول عنه، فقد دابر الإيمان. إن أول ركن بُني عليه الدين الإسلامي: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات، وصدأ الأوهام، وعقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها، يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة"[32]، فيدعو الأفغاني المتدينين بدين الإسلام، في هذا النص، إلى أخذ أصول دينهم بالطرق البرهانية، إنه النظر العقلي، الذي هو، حسب شيوخ المعتزلة؛ **أول الواجبات** التي أوجبها الباري على الناس، لذلك؛ فالعقيدة، حسب الأفغاني، يجب أن تكون قائمة على البراهين القويمة، والدلائل الصحيحة.

أما ذكر عمارة **للإمام محمد عبده**؛ فإنه يحشد له النصوص التي ذكرها في حديثه عن العقل، وقيمته، ومكانته في دين الإسلام، ليبين لنا، من خلالها، تعاضد العقل والنقل، وضرورة الأول للثاني، وعون الثاني للأول، يقول الإمام: "والعقل من أجَلِّ القوى؛ بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون، جميعه، هو؛

30 المرجع نفسه، ص 46.

31 المرجع نفسه، ص 48.

32 جمال الدين الأفغاني، **الآثار الكاملة**، ج 1، إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو شاهي، مقدمة محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 1423هـ/ 2002م، ص ص 42– 43.

صحيفته التي ينظر فيها، وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فيه؛ فهو هداية إلى الله، وسبيل للوصول إليه"[33]، ويضيف: "معجزة القرآن جامعة من القول والعلم، كل منهما مما يتناوله العقل بالفهم؛ فهي معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في ثناياها، وله منها حظه الذي لا ينتقص"[34]، وما يثير الناظر في (الأعمال الكاملة) للإمام محمد عبده: هو تعداده للأصول التي بُني عليها الإسلام؛ حيث يبدأ بالنظر العقلي، ويعتبره الأساس الأول، يقول: "فأول أساس وُضع عليه الإسلام؛ هو النظر العقلي، والنظر، عنده، هو: وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم، فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه، بعد ذلك، أن يجور أو يثور عليه؟"[35]، ثم يثنّي بالأصل الثاني، وهو: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض، ويقول في ذلك: "اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلًا ممن لا ينظر إليه، على أنه: إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما دلَّ عليه العقل، وبقي في النقل طريقان؛ طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه. والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل"[36]، هكذا يكون العقل، هو أساس النظر في الدين، والسبيل الأوحد لفهم النقل، والداعي إلى الاجتهاد واستنباط الأحكام، لما يعترض سبيله من قضايا طارئة، ويكون اتباع التقليد، انطلاقًا من ذلك، إساءة إلى هذه الملكة، وتغليب الكفة إلى كتاب الله المسطور، وغلق الأعين عن مشاهدة كتاب الله المنظور.

لقد جعل الإمام من النظر العقلي، الأساس الأول الذي وُضع عليه دين الإسلام، والسبيل الأوحد نحو الإيمان الصحيح، ومن تقديم العقل على النقل، عند التعارض، الأساس الثاني، وكلاهما يعرفا حضورًا متميزًا للعقل؛ فالنظر العقلي: هو حجر الزاوية الذي بني عليه صرح الدين، وإليه المآل، إذا تعارضت قوانينه مع ما جاء به النقل؛ لكون "الشرعيات تأتي، دائمًا، موافقة للباطن العقلاني"[37]، لذلك؛ نجده يميز بين سلفيته العقلانية، التي تهدف إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، وبين (السلفية الوهابية)؛ "التي جافت العقل والعقلانية، فغدت، في هذا الميدان، أضيق أفقًا من المقلدين، وقادها هذا الجفاء للعقل، إلى حيث تنكبت طريق العلم والمدنية"[38]، هكذا يضع الإمام محمد عبده النظر العقلي شرطًا للإيمان، ويدعو إلى التدبر في كتاب الله المسطور، مثلما دعا إلى التدبر في كتاب الله المنظور، ونهى عن التقليد؛ "لأن العاقل لا يقلد عاقلًا مثله".

---

33 محمد عبده، المرجع السابق، ص 295.

34 المرجع نفسه، ص 299.

35 المرجع نفسه، ص 301.

36 المرجع نفسه، ص 301.

37 «Les sam'iyyat viennent toujours, en quelque sorte, adhérer à un fond «rationnel»». Robert BRUNSCHVIG, **ÉTUDES D'ISLAMOLOGIE**, Tome second, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris, 1976, P 399.

38 محمد عمارة، **المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده**، مكتبة الإسكندرية، 2005م، ص 68.

إن العقل عند الإمام: "من أفضل القوى الإنسانية؛ بل هي أفضلها على الحقيقة"[39]، ولمّا تخلى الناس عن النظر العقلي، حدث الجمود في العقيدة؛ حيث نسي الإنسان المسلم أن "ما جاء في الكتاب، وأيدته السنة، من أن الإيمان يعتمد اليقين، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن، وأن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب؛ كأحوال الآخرة، وفروض العبادات وهيآتها، وأن العقل، إن لم يستقل وحده في إدراك ما لا بد فيه من النقل؛ فهو مستقل، لا محالة، في الاعتقاد بوجود الله، وبأنه يجوز أن يرسل الرسل، فتأتينا عنه بالمنقول"[40]، إن العلم: هو طريق الإيمان، في نظر الإمام محمد عبده. والعقل: هو السبيل الأوحد للإيمان بالله، والتصديق بما جاء به الرسول. أما النقل؛ فهو يختص بما لا سبيل للعقل في إدراكه، كعالم الغيب، وأحكام الصلاة، وعدد ركعاتها، ...إلخ؛ فالعقل يستقل استقلالًا تامًا عن النقل في إثبات وجود الله، وتجويز إرسال الرسل، وأهل الجمود، لم يعرفوا ذلك على حاله؛ بل أخذوا، فقط، بالنقل وأهملوا العقل، و"المسلمون لما كانوا علماء في دينهم، كانوا علماء الكون، وأئمة العالم. أصيبوا بمرض الجهل بدينهم، وانهزموا من الوجود، وأصبحوا أكلة الآكل، وطعمة الطاعم، فهل وقف الجهل بالمسلمين، عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين، أو يذهب مذهب الفلاسفة، أو ما يقرب من ذلك؟"[41].

فالتخلي عن العقل الذي هو طريق العلم، أدى بالمسلمين إلى الهزيمة النكراء من ساحة الوجود الفعلي، ووقف نهر التطور عندهم، وأصبح بركة آسنة، تفوح منها رائحة الجهل والتقليد الخبيثة.

ولإبعاد كل تصور يخرج العقل من مجال الإيمان، أقر الإمام محمد عبده بتآخي العقل والنقل في الشريعة الإسلامية، كما أكد على أهمية العقل للدين، من حيث إثبات العقل لأسس الدين وتبيينه لمسائله، ويفصل لنا القول في هذا الأمر، وهو يجلي ما يدين به الدين للعقل، عندما يقول: "وتقرر بين المسلمين كافة، إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه: أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به، إلا عن طريق العقل؛ كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي به إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك، مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين، إن جاء بشيء، قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل"[42]، في هذا النص؛ الذي يكاد يكرر نص سابق، لا يعطي الإمام أسبقية للعقل على النقل، ولا يعلي من شأن العقل على حساب النقل، فهما، عنده، متزاملان

39 محمد عبده، المرجع السابق، ص 317.

40 المرجع نفسه، ص ص 342- 343.

41 المرجع نفسه، ص 359.

42 محمد عبده، **رسالة التوحيد**، تصحيح وتعليق: رشيد رضا، تصدير عاطف العراقي، كتاب الثقافة الجديدة، القاهرة، ص 9.

ومتعاونان؛ فدين الإسلام "دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد، والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك، فنزغات شياطين، وشهوات سلاطين"[43].

العقل، إذن، يؤازر الدين، ويشهد له، إنه عونه والنقل ركنه، وهذا تمظهر من تمظهرات التآخي، الذي يقره الإمام بين العقل والنقل، على صعيد الشريعة الإسلامية؛ لأن من قضايا الدين، كما رأينا، ما لا سبيل لاعتقاده سوى العقل؛ كالعلم بوجوده تعالى، وقدرته على إرسال الرسل، وإحاطته بمضمون وحيه، وهذا من اختصاص العقل وحده، وهو القادر على إثباته.

ولو كان ما جاء به النقل، يعلو ويسمو على الفهم؛ لكان من المستحيل معرفته عقلًا، فكل من العقل والنقل، خدَمان للدين والشريعة، و"ربما يقول قائل: إن هذه المقابلة بين العقل والدين، تميل إلى رأي القائلين بإهمال العقل، تمامًا، في قضايا الدين. وبأن أساسه: هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة، أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام. فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال، لما كان الدين علمًا يهتدى به؛ وإنما الذي سبق تقريره، هو: أن العقل وحده، لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم، بدون مرشد إلهي، كما لا يستقل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها؛ بل لا بدّ لها من السمع، لإدراك المسموعات، مثلًا، كذلك الدين: هو حاسة عامة لكشف ما يشبه على العقل من وسائل السعادات. والعقل: هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة، وتصريفها فيما منحت لأجله، والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال.

كيف ينكر على العقل حقه في ذلك؟ وهو الذي ينظر في أدلتها، ليصل منها إلى معرفتها، وأنها آتية من قبل الله؛ وإنما على العقل، بعد التصديق برسالة نبي، أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه، والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال، المؤدي إلى مثل الجمع بين النقيضين، أو بين الضدين، في موضوع واحد في آن واحد؛ فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به، فإذا جاء ما يوهم ظاهر ذلك في شيء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار، بعد ذلك، في التأويل، مسترشدًا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض إلى الله في علمه، وفي سلفنا من الناجين، من أخذ بالأوّل، ومنهم من أخذ بالثاني"[44]، يخالف محمد عبده، بذلك، ما أسماه (الغلو العقلاني)، في أن العقلانية الإسلامية لا تطلق العنان للعقل؛ فهذا الأخير له حدود، لا قدرة له على تجاوزها؛ لأنه يستعين بالنقل في معرفة أحوال الآخرة، ومقادير الأحكام، بذلك يكون العقل ينبوع الإيمان، واليقين في الباري تعالى، والتصديق بالرسالة

43 المرجع نفسه، ص 24.

44 المرجع نفسه، ص ص ص 129– 130- 131.

المحمدية. ويكون النقل؛ هو الينبوع في عالم الغيب، ومقادير الأحكام، وغيرها، هكذا يُظهر الإمام التكامل بين العقل والنقل، لا الاختلاف والتعارض بينهما.

وبعد بسطنا لحديث الإمام محمد عبده عن العقلانية الإسلامية، نتوقف مع بعض الأسئلة التي نظنها ستربط الماضي (تراث المعتزلة)، بالحاضر (العقلانية الإسلامية المعاصرة)، فنقول: أليس ما قاله الإمام محمد عبده، يماثل ما ذهب إليه المعتزلة؛ الذين قالوا بوجوب النظر العقلي، أو أن النظر العقلي هو أول الواجبات، ثم تقديم العقل على النقل عند تعارضهما، وتأويل النقل، حتى يتفق مع قوانين العقل؟ أليس هذا استدعاء لتراث المعتزلة الذي يحوي القول بأولوية العقل على النقل؟[45]

هذه اللمحات؛ هي التي اعتمدها عمارة لبيان العقلانية الإسلامية في تاريخها، من النهضة إلى التراجع، ثم الإحياء من جديد، على يد رجال النهضة الحديثة، التي بينت، وتبين تعاضد العقل والنقل من أجل تدبير العاجلة، والفوز بالآجلة.

ونقرأ في أفكار الأفغاني وعبده، ومن بعدهما محمد عمارة: شذرات التراث الاعتزالي في إقرار النظر العقلي وأسبقيته، ودرء تعارض العقل والنقل، وتأويل النقل، إذا تعارض مع مبادئ العقل، رغم مآخذ عبده على المعتزلة، في مسألة (التحسين والتقبيح) العقليين، ولكن هذه المآخذ ناتجة، حسب نظرنا، عن عدم فهم الفكر الاعتزالي، بأصوله ومبادئه، في نسقيته، وهو أمر يجب التنبيه عليه، لكي يضعه بين عينيه كل من أراد الخوض في تراث أهل العدل والتوحيد، وهو القراءة النسقية لهذه الفرقة؛ فالتحسين والتقبيح العقليين، لا يجب فهمهما على أنهما نزعة مادية لا دينية، تُفصح عن عدم جدوى النقل، إذا كان ما جاء به مطابق لما هو مقرر في العقل، هذا موجود في المصنفات الاعتزالية، ولكنه يتهاوى، إذا قلنا: إن المعتزلة تقول: إن ما جاء مجملًا في العقل؛ فصَّله النقل، وبيَّنه على وجه يَسُر معه العمل به، هذا من جهة. أما من جهة ثانية؛ فعندما يؤكد المعتزلة، على أن هناك من الأمور، ما لا يستطيع العقل كشف أسرارها؛ كعالم الغيب؛ أي أحوال الآخرة، ومقادير الأحكام؛ كعدد الصلوات، وعدد الركعات في كل صلاة، ...إلخ، هذه أمور لا سبيل للعقل إلى إدراكها، وتبقى من اختصاص النقل، وهذا الأمر يجيب عن أن التحسين والتقبيح العقليين، ليسا نزعة لا دينية في فكر المعتزلة.

هكذا يكون المعتزلة؛ هم تلك الصفحة المشرقة في التاريخ الإسلامي، حسب تصور محمد عمارة، وهم الفرسان الذين تسلحوا بالمنطق والفلسفة، لمجابهة المخالفين، والذود عن حضارة الإسلام، وهو اعتراف بفضلهم، وبفضل علم الكلام في ازدهار حضارة الإسلام، ورقيها، وإشعاعها الحضاري.

---

45 وعلى الرغم من انتقاد الإمام محمد عبده للمعتزلة، في العديد من الأمور، وعلى الخصوص؛ مسألة (التحسين والتقبيح)، إلا أن هذا النقد، لا يخفي الأثر الاعتزالي في الفكر الإصلاحي للإمام، ويطغى جانب التأثر على جانب النقد.

ت- من عقلانية المعتزلة إلى العقلانية الإسلامية المعاصرة:

يقول عمارة عن العقل وشرفه عند أهل العدل والتوحيد: "وفي الحق؛ فإن مقام العقل عند المعتزلة، هو صفحة من الصفحات المشرقة في حضارة العرب والمسلمين؛ فالعقل، عندهم، هو: (وكيل الله) عند الإنسان، جعل إليه أزمة أموره، وقيادة نشاطاته، وهم يطلبون أن يدعم الإنسان عقله الغريزي، بعقله المكتسب، فذلك هو السبيل لبلوغ غاية الكمال"[46]. إن الباري تعالى، ركب هذه الملكة في الإنسان، أولًا، ثم ثنى بالوحي بعد ذلك؛ فكانت شرط فهمه وتدبّره. ويفَصِّل عمارة حديثه عن العقل الاعتزالي، باحثًا عن وسطية ضمنية، لم يصرح بها، وهي جلية من خلال إثبات عدم التعارض بين العقل والنقل، متبعًا في ذلك؛ ما ذهب إليه الإمام محمد عبده؛ **فالنقل** يؤكد ما تقرر في العقل، ويورد جملته مفصلة، **والعقل**؛ يثبت أن النقل حجة من قرآن وسنة، "ذلك هو مقام العقل عند المعتزلة، قدموه وسودوه، وكان تقديمه وسيادته، قسمة من القسمات التي امتازوا بها عن غيرهم، أو أكثر من غيرهم، من فرق الإسلام، ومع ذلك؛ هم لم يهملوا النقل والمأثورات؛ وإنما جعلوا العقل حاكمًا، تعرض عليه المأثورات، كي يفصل في صحتها، رواية ودلالة، وأكدوا توازن موقفهم، عندما نبهوا إلى أن العقل؛ حجة الله ودليله لدى الإنسان، وكذلك الكتاب، ومحال أن يتناقض دليلان مخلوقان لخالق واحد؛ لأن الغاية منهما، معًا، هداية الإنسان، وسعادته في الدنيا والآخرة"[47]، إنها أسبقية منهجية، الغرض منها: هو التدليل على وجود الله، أولًا، ثم صحة ما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكن وسطية وتوازن هذا القول، ستظهر عندما أكدوا أن كل من العقل والقرآن الكريم حجة، ومن المحال أن يتناقض الدليلان؛ فإذا كان العقل سابق على النقل؛ فهو حجة أولى، أودعها الباري في الإنسان، كي يلزمه الحجة الثانية؛ التي هي حجة الوحي، وهذا درء لتناقض هذان الدليلان، واعتبار الواحد منهما ضروريًا للآخر، ولكن تصور عمارة للعقلانية الإسلامية، سيظهر جليًا، عندما يميز بين تيارات الفكر العربي المعاصر، مبينًا الموقع الذي يحتله العقل، عند أهل هذه التيارات.

يستهل عمارة كتابه "**مقام العقل في الإسلام**" بالتمييز بين خمسة تيارات، يعرفها المشهد المعاصر إزاء (العقل والعقلانية)، وهي: تيارات تعبر عن مواقف متنوعة ومتعددة؛ بل ومتعارضة، ويحصي هذه التيارات كالآتي:

1- التيار النصوصي: وهو التيار الذي يقف عند ظواهر النصوص، ويعرض عن النظر العقلي.

46 محمد عمارة، **تيارات الفكر الإسلامي**، سبق ذكره، ص 70.

47 المرجع نفسه، ص 72.

2- التيار الباطني: "يدَّعي التصوف، لكنه أقرب إلى (الغنوصية- الباطنية)، التي اعتمدت على (الحدس)، دون العقل، والنقل، والتجارب الحسية"[48]، وهو تيار تنكر للعقل، وتعسف في التأويل، وخالف قواعد اللغة فيه.

3- التيار الحداثي الغربي: وهو تيار معروف بإيمانه المطلق بالعقل، ونفيه للنسبية عنه، وشعاره: "لا سلطان على العقل، إلّا العقل وحده"؛ حيث "قاد هذا (الغرور العقلاني)، هذا التيار التغريبي، إلى مخاصمة النص الديني الإسلامي، وافتعال معركة وهمية، بين العقل والنقل، وذلك تقليدًا لما عرفته المسيرة الحضارية الغربية، دون إدراك التمايز، الديني والحضاري الإسلامي، الذي جاء (النقل) فيه معجزة عقلية، والذي تقرر لغته العربية؛ أن المقابل (للعقل)، ليس (النقل)؛ وإنما هو (الجنون)"[49].

4- التيار ما بعد الحداثي: وهو التيار الذي ظهر على أنقاض الحداثة الغربية، والذي ينظر إلى المقولات التي جاءت بها العقل؛ (العلم، التقدم)، نظرة تفكيكية، وهي لم تقدم للإنسان سوى العدمية والفوضوية.

5- التيار الوسطي الإسلامي: إنه التيار الذي يبني عقلانيته على كتاب الله المسطور، وكتابه المنظور، يبنيها "على نور الشرع، ونور العقل، لتكون عقلانيته هذه؛ عقلانية مؤمنة متوازنة، العقل فيها؛ هو الأساس، والدين فيها؛ هو البناء على هذا الأساس المتين، من الفقه، والوعي بالشرع؛ الذي نزل به الروح الأمين، على قلب الصادق الأمين، عليه الصلاة والسلام"[50].

إن تمييز عمارة بين هذه التيارات، يدفعنا إلى التساؤل الآتي: أين يتموضع موقف عمارة ضمن هذه التيارات؟

إن النظرة الوسطية التي يصدر عنها عمارة، تجعلنا نجزم أن الرجل ينتمي إلى التيار الوسطي الإسلامي؛ حيث نظر إلى أكثر الصفحات إشراقًا في تراثنا العربي الإسلامي، وهي الصفحات المكتوبة بحروف العقل، وملونة بمداد النقل، واستهواه في هذا التراث، فكر المعتزلة، الذي اشتغل عليه، تحقيقًا وتأليفًا، وهو ما قاده إلى اكتشاف مسألة الوسطية في هذا التراث، كما أن العمل على جمع أعمال رواد النهضة العربية الحديثة؛ كالطهطاوي، والأفغاني، وعبده، زاده إدراكًا لأهمية هذا التراث عند هؤلاء، الذين طالبوا بإحياء العقلانية الإسلامية.

48 المرجع نفسه، ص 3.

49 المرجع نفسه، ص ص 3– 4.

50 المرجع نفسه، ص 4.

لكن عند تتبعنا لمؤلفات عمارة؛ نجده يمجد العقلانية، ومن خلالها المعتزلة، كحركة للدفاع عن الإسلام، وهو استدعاء ليس لبناء الحياة المعاصرة للمسلمين، بإيجاد حلول واقعية للمشاكل الداخلية قبل الخارجية؛ وإنما هو استدعاء لمواجهة التيار التغريبي العلماني، من جهة. والنصوصي السلفي من جهة ثانية، وبالتالي؛ سلوك سبيل وسط بين هذا وذاك، وهو ما يعني؛ الوفاء لغاية علم الكلام الدفاعية فقط، بينما أغفل عمارة الاعتزال، باعتباره فلسفة حياة، وبناء داخلي، بإيجاد حلول للإشكاليات التي يعاني منها الإنسان المسلم، بيد أن هذا الأمر، ناتج عن الهم الذي يحركه في عالمه المعاصر، الذي هو: الدفاع عن الإسلام، بمنهج وسطي بين تيارين: تيار علماني؛ ذو المرجعية الأوروبية، وتيار نصوصي؛ آخذ بالرواية، وبارع فيها، ومحرم لعلم الكلام والدراية.

خلاصة:

لقد كان من الضروري، لإظهار الأثر الاعتزالي في العقلانية الإسلامية، التي ساهم عمارة في بلورتها في الفكر الإسلام المعاصر: أن نعرض الجوانب التاريخية، التي أكد من خلالها عمارة، على عقلانية الرسالة، والمنبع الأصيل للعقلانية الإسلامية، وهو لم ينكر التفاعل الذي استفادت منه عن طريق التلاقح الثقافي مع الإرث اليوناني، كما لم يغفل عن علاقة العقل بالنقل، التي نظر إليها نظرة المعتزلة قديمًا، ورواد النهضة حديثًا، فربط بينهما (العقل والنقل)، برباط التآزر والتكاتف؛ حيث أرجع أسباب التراخي الحضاري للعالم الإسلامي، إلى إهمال العقل وإبعاده، والاكتفاء بالنقل والمغالات في فهمه، وهو أمر بدأ بالانقلاب السني على المعتزلة، وتحريم علم الكلام؛ فالمعتزلة، عنده، صفحة مشرقة في تراثنا الحضاري، وأعلامها فرسان العقلانية في هذا التراث، ولما أرادت الأمة أن تنهض، بدأت تحيي تراثها العقلاني، وتدعو إلى إعمال العقل في فهم النص الديني، ودرء التعارض بينهما.

لائحة المراجع:

1. أبو القاسم البلخي، القاضي عبد الجبار، الحاكم الجشمي، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق: فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، 1393هـ/ 1974م.
2. الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد أبو اليزيد العَجَمِي، دار السلام، ط 1، 1428هـ/ 2007م.
3. الغزالي أبو حامد، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، تحقيق ودراسة: حكة مصطفى، دار النشر المغربية، 1983م.
4. عبده محمد، **الأعمال الكاملة**، ج 3، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، بيروت– القاهرة، ط 1، 1414هـ/ 1993م.
5. عبده محمد، **رسالة التوحيد**، تصحيح وتعليق: رشيد رضا، تصدير: عاطف العراقي، كتاب الثقافة الجديدة، القاهرة.
6. الأفغاني جمال الدين، **الآثار الكاملة**، ج 1، إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو شاهي، مقدمة محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 1423هـ/ 2002م.
7. جب هاملتون، **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة: إحسان عباس– محمد يوسف نجم– محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، أبريل/ نيسان 1979م.
8. BRUNSCHVIG Robert, **ÉTUDES D'ISLAMOLOGIE**, Tome second, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris, 1976.
9. عمارة محمد، **مقام العقل في الإسلام**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، فبراير 2008م.
10. عمارة محمد، **تيارات الفكر الإسلامي**، دار الشروق، ط 2، 1418هـ - 1997م.
11. عمارة محمد، **المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده**، مكتبة الإسكندرية، 2005م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017